الإسلام والفنون فى البلاد الإسلامية

العمارة عمار واستقرار. والإسلام يحب العمار (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه).

والإسلام يحب البناء حتى ليشبه به تماسك المجتمع الإسلامى (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا). **بنى الإنسان بالقيم الكريمة.. وبنى المكان بالمدن الكبيرة... حتى الجنة فيه: (غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار).**

وقد اهتم الإسلام **ببناء المساجد وجعل عمارة البيت الحرام مرقى من مراقى القربى** إلى الله تعالى.

(انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر).

ومسجد المدينة كان الرسول يعمل بيده فى بنائه مع الصحابة والمسلمين تكريما للدين، وتكريما للعمل، وتكريما للبناء الذى يضيف ويرفع، حين يحطم الهدم، ماديا ونفسيا.

وقد كيف الإسلام، عمارة المسجد من حيث:

* **الفراغ المعمارى.**
* **الارتفاع.**
* **الزخرفة.**

وفى المعبد الفرعونى يتجه الفراغ إلى نقطة محددة من بهو الأعمدة... إلى قدس الأقداس.

وفى الكنيسة المسيحية يتجه المصلون إلى الهيكل.

وفى المسجد الفراغ رأسى يربطه بالسماء كما فى المئذنة وأفقى يربطه بمكة.

إن إيثار الإسلام للمساواة واحتفاله بها، وتأكيده عليها، انعكس على العمارة الإسلامية فمالت إلى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين

«**الرأسية**» على التفاوت و«ترفع» الارتفاع وشموخه. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الاسبانى «دون مانويل جومث مورينو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل... وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة. ولايستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الآذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولايتحقق الانتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقا من ارتفاع.

حتى مايخرج عن «الأفقية» من الأشكال، يطوعه الفنان المسلم لها. وإن كانت المآذن المصرية أمعنت فى الارتفاع بالوراثة المعمارية التى رفعت من قديم المسلة ففى داخل كل مئذنة، مسلة، على تفاوت.

يقول الدكتور عبد العزيز سالم[1] إن الفنان المسلم (حين يخطط زوايا، يؤثر المنفرجة لأن الزاوية القائمة شكل من أشكال الارتفاع، وحين يبرز استدارات فإنه يطوقها بإطار مربع، وحين يقيم قبابا، فإنه يهتم بتصغير نسبها حتى لاتفسد أفقية البناء، بل يوزع تكورها على نصوص، أو يقضى عليه بأن يستبدل به تقاطع العقود، أو يهبط به الى مستوى القبوات).

وينعكس مبدأ المساواة فى الإسلام، مرة أخرى، على العمارة الإسلامية، فى ميل المعمارى المسلم إلى السقوف المنخفضة المتمثلة فى المساجد الأولى كجامع المدينة والجامع العتيق بالفسطاط الذى يحكى المقريزى أنه كان منخفضا حتى عبد الوليد ابن عبد الملك حين قام عبد الله بن عبد الملك برفعه سنة ٨٩ هـ. بل إن المقرى فى «نفح الطيب» يحكى أن جامع قرطبة الذى أقيم بعد الفتح الإسلامى سنة ٩١ هـ، كان يصعب على المصلين به القيام على اعتدال لتقارب هذه الأسقف من الأرض (جـ ٢ ص ٩٦) وظل هذا طابع المساجد فى دولة الإسلام حتى القرن الثالث الهجرى فإن جامع ابن طولون فى القطائع الذى أقيم سنة ٢٦٥ هـ كان ارتفاع مسطحه لايزيد على عشرة أمتار عن أرضية المسجد.

وما لبثت مصر أن عملت على تصعيد الارتفاع فى المسجد بوراثاتها القديمة... ويتجلى ميل مصر إلى السمو فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما إسلاميا.

---

(١) كتاب (القيم الجمالية فى فن العمارة الاسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم.

لقد قاربت المساواة فى الاسلام بين المسلمين، وقربت بين الفنون الإسلامية. فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن فى عام ١٩٧٦، قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع، إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه، متشابه، وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى.

احترم الإسلام عقل الإنسان، وطب الإسلام لروح الإنسان ووجدانه معا... ومن هذا موقف الإسلام من الفن.

كانت صفات الله وأسماء الخالق المبدع أمام عمل الفنانين ووجداناتهم وأحاسيسهم فإنتاجاتهم الفنية محملة بهذا الإحساس القدسى، روية من التوحيد والتنزيه لله... حتى وقف العالم الفرنسى Bourgoin برجوان طويلا عند الفن الإسلامى.

فى الفن الإسلامى حسن الحوار والجوار الذى أوصى به الدين الإسلامى فى الفن الإسلامى تجمع يهوى الترابط أو انبثاق يهوى الإشعاع (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الملك ٥.

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا... وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) يونس ٥.

ويأتى الزجاج المعشق عنصرا من عناصر اللون الغنى بتأثيره الجمالى فى العمارة الإسلامية فلعبت الاشعاعات الضوئية النافذة إلى الداخل، عبر اللوحات الزجاجية ذات الألوان لتكون قيما جمالية بتعدد صورها حسب شدة الإضاءة الطبيعية وتغيرها تبعا للتوقيت اليومى... وحالة السماء.

أى لون فى حركة دائمة أو حركة ملونة.

اللون فى القرآن الكريم، له صور شتى.

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها... ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها... وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) فاطر ٢٧ – ٢٨.

السماء... الماء... النبات... الجبال... الناس.... الدواب الأنعام... ألوان ألوان...

وعشق الفنان المسلم الألوان: المصرى من طول العهد بالزراعة واللون الأخضر أغنى الألوان فى الطبيعة... والعربى من طول العهد باللون الأصفر فى الصحراء فأقبل على الألوان فى ولع يشتهى التعويض.

والإسلام قيمة كبرى لعناقه مع الحياة فى ود موصول يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا، له، طابعا. يقول م. س. ديماند فى كتابه (الفنون الإسلامية):

(يمتاز الفن الإسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله، وهذا التنوع بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن نجد تحفتين متماثلتين ومع ذلك يمتاز بوحدته.)

وقد وقف العالم الفرنسى برجوان، طويلا عند الفن الإسلامى.

وقيل عن ليوناردو دافنشى أنه كان يقضى وقتا طويلا فى تأمل رسم هذه الزخارف الهندسية الإسلامية.

لقد قاربت المساواة فى الإسلام بين المسلمين، وقربت بين الفنون الإسلامية. حدث فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن سنة ١٩٧٦، أن قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع، إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه، متشابه، وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى.

الفن الإسلامى يشده بعضه إلى بعض، رباط بلا شك، ولكن العنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الإسلامى فى أوطان عدة، إنما **هو الفكر الإسلامى** إنما هو **روح الإسلام** من مساواة وحرية وسماحة وتوحيد... ثم تجئ الكتابة العربية فتستوعبه...

وقوى نفوذ الفن الإسلامى حتى شاع فى انجلترا فى عهد الملكة اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه أرابيسك.

لايعرف الإسلام الهدم فى أى صورة.

الإسلام **بناء وتقدم**... أى حضارة.

بنى الإنسان بالقيم الكريمة.. وبنى المكان بالمدن الكبيرة... حتى الجنة فيه (غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار).

والإسلام يحب البناء حتى ليشبه به تماسك المجتمع الإسلامى (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا).

إن من يعمر المساجد فذلك مرقى من مراقى القربى إلى الله تعالى:

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر).

ومسجد المدينة كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعمل بيده فى بنائه مع الصحابة والمسلمين تكريما للدين، وتكريما للعمل، وتكريما للبناء الذى يضيف ويرفع، حين يحطم الهدم ماديا ونفسيا.

كيَّف الإسلام بروحه وتعاليمه، العمارة الإسلامية فالقبة فى المسجد الإسلامى مظلة رضوان... وهى تميل فى فارس إلى التثمين متأثرة بالآية:

(ويحمل عرش ربك فوقهم، يومئذ، ثمانية).

الفن الإسلامى له **رؤية ثم يتنوع بتعدد الإنسان** الخلاق الذى يحترم الإسلام حريته.

كرم الإسلام الأم والأب فارتفع فيه معنى الأسرة وكرم الإنسان فارتفع فيه معنى السر والستر.

ومن هنا **احتفل الفن الإسلامى بالباب فنقشه ونمنمه بما يقفل على أسرار مصونة**، ويفتح على **عالم سعيد**، أسرة... أب وأم وأبناء.

الباب الإسلامى معمور... **إنه بستان نباتى ملتف الأغصان تحف به النجوم إشارة إلى وحدة الكون واستضاءته بفضل الأصل الواحد.**

* * * * *

حبب الإسلام الحجاب بما فيه من ذاتية وخصوصية وانعكس هذا على طراز عمارة البيت الإسلامى الذى يفتح على الداخل لا الخارج... والذى تشكل نوافذه مشربيات حاجبة... حتى حديقته ونافورته تقوم فى الداخل حتى يستقل أصحابه بما حوى.

هذا حين يدخل الجميع من باب المسجد لأنه بيت الله إله الناس...

تساووا فلا أنساب فيها تفاوت ∴ لديك ولا الأقدار مختلفات

كيف الإسلام بروحه وتعاليمه العمارة الإسلامية. كما أسلفت، يقول الدكتور فريد شافعى(١) (الدين قد يستخدم العمارة والفنون للتأثير على الناس، أو يستخدمها هؤلاء للتعبير عن شعورهم نحو دينهم). ص ٢٣١.

وقد عدد الدكتور فريد المؤثرات التى تكيف العمارة فى أى مكان.. من تلك العوامل: النظم السياسية – الحالة الاقتصادية – البيئة المناخية – الطبيعة الجغرافية – التكوينات الجيولوجية.

وقد خضعت العمارة الإسلامية لهذه العوامل فى نشأتها وتطوراتها خاصة فى مصر حلقة الوصل بين الشرق والغرب... ويؤكد الدكتور فريد أن العمارة الإسلامية فى المسجد نمت نموا محليا جعلها تختلف فى وحداتها، وفى نسبها، وأحجامها، عما يقابلها فى البلاد الإسلامية.

إننا نلاحظ فى المسجد المصرى، كالمعبد المصرى: **الممر الضيق الطويل يخرج منه السائر إلى الرحابة الرحبة فى البناء، وفى المكان.**

هل يوفر الفنان للمكان، **عنصر المفاجأة؟ عنصر الدهشة الجمالية؟**

هل هو درس نفسى أن **الضيق بعده فرج**؟ هل هو ترديد للآية: (**إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا**). هل هو تحضير للدخول؟

تحضير للنفس وتحضير للصمت يفتح بعدها المكان قلبه وذراعيه؟ وينشرح الصدر وكأن الزائر مسلم.

وبعد الممر ينفتح المسجد على الصحن كما كان ينفتح المعبد على بهو الأعمدة. وتقابل الميضة فى المسجد، بحيرة الاغتسال فى المعبد ويقابل المحراب والمنبر فى المسجد قدس الأقداس فى المعبد، إن القبة هى الترجمة الإسلامية للهرم... ترفق الخط فى يد الفنان المسلم، من سماحة الدين الجديد، فاستدار الخط بعد صلابة وثبات.

إن الفن التشكيلى له قدرة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللغة، والقرآن الكريم فيه توجيه للتشكيل (هو الله الخالق البارئ المصور). **وفيه توجيه للنور والظلال** (والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، والسماء ومابناها، والأرض وما طحاها ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها).

الكون فى الإسلام صور... **الزهرة صورة، والقمر، والضحى، والليل،** صور... صور حتى **الكلمة الطيبة، صورة فى القرآن فهى كشجرة طيبة**،صور أقسم بها القرآن إشارة إليها وإشادة بها، وإعلاء لها، ودعوة إلى **اجتلائها فى سجدة قلبية، هى هدف الإسلام من السجود.**

السجود الحقيقى فى الإسلام **إيمان القلب بالقدرة، وشهادة للخالق بالتفرد، حين ينبهر الإنسان المحدود، بالكون الشامل فيقول بالحركة (ولم يكن له كفوا أحد)**.

ومع هذا تطوحت الآراء فى فن التصوير مابين **حلال وحرام**. وقد لعب اختلاف الرأى فى هذا الموضوع من موضوعات الفن دورا كبيرا فى الزخرفة الإسلامية التى ابتعدت عن رسم الإنسان **إيثارا للسلامة واتجهت إلى التجريد خطوطا، والى النبات أغصانا وأوراقا.**

ولكن الزخرفة الإسلامية **أعتقت من الواقعية الهللينية والصلابة الفارسية فانطلقت بلا نهاية لأنها تتطلع كالمسلم إلى الله الذى (هو الأول والآخر)**. الحديد ٣.

الخطوط فى الزخرفة الإسلامية **دوارة طوافة**... ويدركها **البهر فتتوتر**، ولكنها تمضى بلا ملل منْ يعرف الصبر. فاذا **قابلها حاجز من إطار، أو حافة من جدار، أفاقت** كمن يصطدم بالواقع ثم ماتلبث أن تستأنف نشاطها من جديد، فى ساحة أخرى.. بالروح نفسها... والتصور نفسه، مما يحسبه النقاد، تشابها وهو وحدة أسلوب مع تنوع الأنماط.

* * * * *

لقد ابتكر الفن الإسلامى من الأشكال الهندسية ألوانا وأنواعا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها أعدادا لاحصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر... وانتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى إسلامى فريد.

ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن اطلق الفنانون الأوربيون كلمة «**أرابيسك**» على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير إسلامية.

وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران، وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة.

وقد بلغ من نفوذ وسحر الفن الإسلامى على الأوربيين أنهم قلدوه تقليدا حرفيا فنقلوا حروفه على أنها جزء من النقوش، ومن الطريف ماذكره المستشرق توماس أونولد فى كتاب (تراث الإسلام) أنهم عثروا فى أيرلندا على صليب من مخلفات القرت التاسع على الأرجح نقشت البسملة على زجاجه فى وسطه بالحروف الكوفيه.

الزخرفة الإسلامية مؤمنة بأن الغيب سر من أسرار الله فهى **دائما تواقة إلى المجهول، مشتاقة إلى المكنون والمضمر.**

وفى نشوة الخلق الجميل، **ينطلق الفن الإسلامى فيتعمق كل شىء حتى طيات الكساء وثناياه فإذا حقق غايته تعزى وارتوت روحه الظمأى، بعض الشىء إلى عالم المجهول.**

إن **تعلق القلب المسلم بالمطلق كان وراء حب الفنان المسلم للتجريد** حتى فى رسمه للأشكال يغطيها بالزخارف ويوشيها بالنمنمة أو يحيل الأجزاء الى وحدة زخرفية فى تحوير يكاد يبلغ مرتبة التصوير.

وتمطر السحائب بعد كلمة الرشيد بغزارة ويتدفق المال كالسيل ويظهر ميل النفس الطبيعى إلى الاستمتاع بل تشتد الرغبة فيه بعد حرمان طويل ويجد العربى المسلم حلا سعيدا للمعادلة الصعبة.. بين حض العقيدة على القسط والقوام بين الإسراف والتقتير، وبين حب الفخفخة وجنون العظمة فيعوض الفنان المسلم عن التماثيل الضخمة النمنمات والوشى والتذهيب والترصيع حتى الجدران والأرض غطاها بالفسيفساء... حتى الفخار أصبح خزفا له بريق معدنى.

* * * * *

أقول حتى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء، زاد عليه المسلمون (التقسيم) بالألوان فى مصر الإسلامية... كان الفنان المصرى المسلم مأخوذا بالنظام والموسيقى فخلق من «التقاسيم»، أفراحا تغنى.

إن الايقاع فى الفن الإسلامى يعتمد على التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسى.

وينعكس الترتيل فى القرآن الكريم (ورتل القرآن ترتيلا).
على العمارة الإسلامية، ظاهرة العقود المتوالية.
توالى العقود، لون من الترديد.
لون من التطريب الهندسى.
ونثر النجوم فى الزخرفة الإسلامية، لون من الترديد.. والتوليد.
إنه تحية لسورة (النجم)... تحية للآية الكريمة (والسماء والطارق والنجم الثاقب)

وفى المسجد دكة المرددين... وهذا غير التكرار الذى يوقع فى الملل. أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى، أن. ونظام الوحدات فى الزخرفة الاسلامية، لون من الترديد.

بل إن الإسلام وراء فن الموسيقى فإن تجويد القرآن وترتيل الآذان وراء حفظ الموسيقى العربية...

يروى الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه «قطوف» أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا (إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو «الأولة» – ومن أولة الآذان هذه، ابتدع بيرم، فيما أرجح، حين تشرب وعشق الروح المصرية، ألوان الأولة فى الغناء – وقفوا وقد أرهفوا آذانهم، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم. فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا، أسرع مؤذنو المساجد حوله بترديدها... وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للأسماع أصواتهم وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد، وإذا بدا بالبياتى، أو بالحجاز، أو بالسيكاه... إلخ وما شاء الله كان).

لم يعاد الإسلام حضارة من الحضارات أو فنا من الفنون وليس أدل على قوة ذاتية غير عادية، فيه، من أنه وهو حديث عهد بالفنون والصناعات قد احتواها بقوته وحقيقته حتى صارت مَعْلما من معالمه جديدا قديما... وهو على جنسيته الأصلية، إسلامى فى: النهاية.. والأثر.. والمفهوم

والزخرفة الإسلامية تحتفل باللون حتى لتقيمه مقام الضوء محاكيا للطبيعة مرة أو مخالفها ولكنه فى الحالين لايشوبه تكبر أو تجبر لأن الفنان يقرأ فى قرآنه الآية (**ومن أحسن من الله صبغة**) البقرة ١٣٨. ويعرف اللون مكانته عند الفنان المسلم فيمضى يكتشف له الأشياء حين يكتنفها ويندمج معها... **ويعطيها وتعطيه فيغدو الإحساس**

ملونا، واللون حساسا قبل «سيزان» رائد التصوير الحديث الذى تجاوز أسلوب عصر النهضة الاتباعى.

وكثيرا ماغمس الفنان المسلم ألوانه فى ماء المعادن يمالس بها السطح، ويؤانس بها الشكل فتلمع أو تتطوس وهى فى الحالتين مايكاد الفنان يسكبها على السطح حتى تؤدى فى غناء... وكأنها إفضاء نفس الى نفس ورجاء روح إلى روح.

هذا إذا كان الفنان واجدا سعيدا عنده مايقوله، أما إذا كان الفنان لم تلمسه بعد الشرارة المقدسة، فإن ألوانه تكون صارخة كأنها تعبير عن ضيقه المكتوم.

* * * * *

ويبدو أثر الإسلام فى وجه آخر وهو تركيز الفنان المسلم، الزخرفة وتكثيفها، فى مواضع معينة كالمنبر والقبلة والمحراب والمئذنة وكأنها تحية خاصة للإسلام.

* * * * *

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الإسلامية وصارت من مميزاتها (الشمسيات) أى... «الشبابيك» المفرغة المحشوة بالزجاج الملون التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى.

ومن تأثير الإسلام فى الفن الإسلامى أنه فن متفائل من بشر الإسلام وبشريته إلى جانب قدسيته... دين لاينكر الزينة والمتاع فى غير حرام... ومن هنا ولع الفن الإسلامى بالتزويق وكأنه موسيقى الشعر العربى المقفى أو كان فيه من سحر الكهرمان أو بيان حسّان، أوغنائيات البحترى.

وحين أشبه الفن الإسلامى بالشعر العربى يشبه المستشرق غارسيا غومس الشعر العربى فى الأندلس بزخارفه الموشاة «الأربسكية» بأنه قصور حمراء لفظية.

حتى الخزف ترقص فيه الألوان من الفرحة، وتغنى الظلال فى تطريب وينسكب الضياء مشرقا كنور الإيمان وضياء كضمير المؤمن معذور الفارابى حين طرب لها وأنزلها منزله الألحان الكاملة.

وكأنى بالفن الإسلامى يتدفق كسيال يجرى مدافا فيه أسرار المعانى والألوان والوجدان ويخلب بالتقابل والتلاقى، عيون العشاق وأفئدة من الناس تهوى إليه.

والفن الإسلامى خاصة فى مصر حين يطعم ويرصع يستجمع خبرات المكان الذى انطق الحجر ولعب بالذهب مهر فى التشكيل والتصوير... وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صنعت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين العصرين مما أغدقته على الفاطميين، القاهرة.

ليس تقييما ولكن حوارا، كثيرا مايدور بين فن غال وحبيب يغالى ولايغلو.

أتوقف عند هذا القدر من الحديث عن الحضارة الإسلامية علما وفنا وأثرا فى أوربا بما ارتادت وسبقت وأعطت فى غير من او استعلاء.

وقد مهرت مصر الآثار الإسلامية على أرضها وخارجها: ففى أنحاء العالم الإسلامى مآثر لمصر وآثار حفر اسمها عليها، عمالها الذين كانوا يقصدون البناء والتعمير والتجميل. إن من يراجع (توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية) وقد أفرد لها الآثرى حسن عبد الوهاب، كتابا، يجد أن (أكثر العمارات التى أجريت بالحرمين الشريفين نفذها مهندسون وعمال مصريون).[1] ... وقبل الأثرى المصرى، أشاد بصناع مصر، الرحالة عبد الغنى النابلسى، وابن فضل الله العمرى، والرحالة البشارى المقدسى، والبلاذرى، والهروى، وابن بطوطه.

لقد كان لمآذن المساجد وبخاصة مساجد القاهرة فى القرنين ١٤، ١٥ تأثير واضح فى أبراج النواقيس فى كنائس إيطاليا فى عصر النهضة وهى التى نقل عنها رن (ت ١٧٢٣) فى القرن الثامن عشر ماصممه من أبراج عند ترميم ثم إعادة بناء كاتدرائية القديس بولس فى لندن.

كما نقل الصليبيون فن العمارة الحربى إلى أوروبا من مصر والشام.

وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

---

(١) كتاب (توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى فظهرت فى الكنائس الأوروبية الزوايا والبروج المستديرة.

لقد تأثرت الحياة الأوروبية بالحضارة الإسلامية حتى انعكست فى لغاتها ألفاظها مثل:

Cotton من القطن... Muslin من الحرير الموصلى، Damas من الحرير الدمشقى.. Devan من الجلد القرطبى، Morocoo من الجلد المراكشى... Jupe من الجبه، Musk من المسك، Attard من العطر... Syrup من الشراب، Jar من الجرة، Rice من الأرز، Lemon من الليمون Sucre من السكر.

هذا بعض ما ثبت فى الإنجليزية والفرنسية وأضعاف هذا فى الإسبانية والبرتغالية ولا تأخذ الحياة الأوربية هذا كله من العربية إلا اذا كانت الحضارة الإسلامية فى مقام التفوق الذى يغرى بالاقتباس.

وكانت روح الإسلام وراء المسجد الإسلامى وضعا وموضعا.

المسجد للجميع لأن بيت الله، اللائذون به كثيرون وهو لايصد أحدا.. فلهذا تعددت الاتجاهات المفضية إليه بل تعددت الأبواب فى المسجد الحرام وكان المسجد فى البداية يبنى فى وسط المدينة تيسيرا للجميع، ليس بالمسجد حجاب أو أماكن متفاوتة مخصصة إنه مكان واحد رحيب كالقلب المفتوح. من يحضر أولا، يتقدم فى الصفوف على سواء بين الناس.

* * * * *

الترتيل فى القرآن (ورتل القرآن ترتيلا) انعكس على العمارة الاسلامية، ظاهرة العقود المتوالية.

توالى العقود، لون من الترديد.

لون من التطريب الهندسى ونثر النجوم فى الزخرفة الاسلامية فى أحجام مختلفة، نوع من الترديد والتوليد. إنه تحية لسورة النجم... تحية للآية: (والسماء والطارق... والنجم الثاقب). ونظام الوحدات فى الزخرفة الاسلامية، لون من الترديد.

وفى **المسجد، دكة المرددين** وهذا غـيـر التكرار الذى يوقع فى الملل. أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى، فن.

بل الاسلام وراء فن الموسيقى فإن **تجويد القرآن وترتيل الآذان وراء حفظ الموسيقى العربية.**

ومـبـدأ التكافل الشـامل فى الاسلام كـان وراء العـمـارة الاسـلامـيـة والجامعة الاسلامية ومثل هذا: الأزهر، إنها روح الاسلام وراء نظام الأروقة فيه.

(المسلمون أمـة) وأى أمـة؟ (خير أمـة أخرجت للناس) لهذا لم يكن الأزهر مسجدا محليا بل مسجد أمة يلتقى فيه ٣٦ جنسية فى ٣٦ رواقا.

الاسلام وراء تاج محل فى الهند بناه مسلم لمسلمة.

أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى فن.

الرحمة فى الإسلام ترجمتها العمارة الإسلامية فى عدة صور: **المارستان والأسبلة والأربطة** والأوقاف أو الأحباس، كما ذكرت.

ومن الرحـمـة، **الطمأنينه** التى يبثـهـا الإسـلام فى نـفـوس المؤمنين **وعدا** بالجنة وبوجود حياة أخرى وثواب وعقاب يعاقب على السيئة ويثيب على الحسنة بعشرة أمثالها مما جعل المسلم يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه.. وليس أبقى أثرا وأقوى تخليدا من العمارة الخيرية برسوخها وثباتها فنرى أشد العصور ظلما وظلاما احفل العصور بالمساجد والأسبلة والأربطة من باب التـقوى أو التكفـيـر عن الذنب بل ظهـرت فى النظم الإسلامـيـة نظام الأحباس أى الاوقاف.

حتى العمارة الدنيوية يحبسون ريعها أو بعضه على أعمال الخير بشروط يرونها محققه لآمالهم فى المثوبة من الله.

وهكذا يدين شطر عظيم من الآثار الإسـلامـيـة على اخـتـلافـهـا للإسـلام دينا للدنيا والآخرة.

هذا بينما الجنة لاوجود لها فى الديانة اليهودية القديمة فكان من المحتم عندهم أن ينال المرء كل شىء فى هذا العالم.

وهذا سر ما اتسم واتصم به اليهود من تكالب على المادة... كل مشكلة عند اليهود سببها وحلها الفلوس وفى الإسرائيليات عندما تساءل النبى أيوب عن الخير والشر والحكمة

والعدل والظلم جاءه الجواب فى صورة، هبة من الرب مقدارها ١٤٠٠٠ من الغنم، و٦٠٠٠ من الإبل وألف من الثيران وألف من اتان وسبعة بنين وثلاث بنات... وهى كما يقول «ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة» خاتمة سعيدة ولكنها عرجاء لأن أيوب تحصل على كل شئ إلا جواب أسئلته وتظل المشكلة قائمة عند اليهود حتى سفر الجامعة لم يحلها بل كانت رؤيته لها متشائمة حين قال:

«إن الهناء والشقاء فى هذا العالم لاشأن لهما بالفضيلة والرذيلة».

وامتد أثر الإسلام فى الفنون الإسلامية بعد العمارة إلى **الزخرفة والتشكيل** بأنواعه **والتلوين والخط**.

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الإسلامية وصارت من **مميزاتها** (**الشمسيات**) أى الشبابيك المفرغة المحشوة بالزجاج الملون التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى.

* * * * *

إن **الإسلام رسالة ثقافية فنية على أعلى مستوى. يوم حبب إلينا الجمال والزينة** (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق). (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها **جمال** حين تريحون وحين تسرحون).

وتشرب الفنان المسلم روح دينه فمضى **يزركش المربع ويحنن المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح الصامت بالنقش والنمنمة.**

حتى الخشب أرواح تتحاب وتعشق. يقول ديورانت فى قصة الحضارة إن «المسيحية فى مثاليتها المجردة، قد وضعت لتسير عليها أقلية ورعة». **ولكن الاسلام احتفل بالدين والدنيا**. الإسلام ميزته أنه **أسلوب حياة**... نمط سلوك **من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء.**

الإسلام يحب المتعة فى غير إثم **والفن نعيم روح، إن الترف المادى عبء، ولكن الترف المعنوى جناح.**

أن تجعل من الحياة جزءا **فنا جميلا، وأن تجعل من الفن حياة جميلة، نعمة كبرى.**

* * * * *

ولما كانت العربية جزءا من الإسلام لنزول القرآن بها، فقد تمثلت، هذا، **الزخرفة الإسلامية فى محبة للإسلام، فغدا الخط العربى عنصرا بارزا من عناصر الزخرفة الإسلامية** حتى **وصلت بها تسعين نهرا (أى طريقة).**

وانتقل حب ترتيل القرآن الى ترتيل الخط أى تحسينه فقال الامام على (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا).

وحين أقسم الله بأداة الكتابة **وهى القلم.** ارتفع شأن العلم وارتفع شأن الخط باعتباره حامل المضمون وعنوانه. وهكذا انبعثت **قواعد الخط محاذاة لأصول مخارج الحروف فى جميع البلدان الإسلامية** كما لاحظ هذا **وسجله الدكتور بشر فارس فى سماحة تجمع المسيحية والإسلام عند العارفين.**

وهكذا أصبح الخط العربى فنا جميلا، وجليلا.

* * * * *

وقف وراء الفنون فى البلاد الاسلامية:

سماحة الإسلام الذى سمى نفسه دين الفطرة إشارة إلى أنه دين الإنسان السوى أينما وجد وفى أى مكان (بعثت إلى الناس كافة) لقد طبق الإسلام هذا المعنى عمليا وتلقائيا حين صارت له دولة وصولة وخلافة فلم يتمسك بمكة أو بالمدينة عاصمة له.

إن الامبراطورية الإسلامية هى الامبراطورية الوحيدة التى تتمسك بعاصمة واحدة تقليدية.

كانت العاصمة فى الإسلام، دمشق ثم بغداد، القاهرة هذا غير المدن الأندلسية وكان من أثر هذا أن ازدهرت فى الإسلام العواصم معماريا وفنيا وعلميا لأن كل عاصمة يوفر لها أهلها رصيدهم من الحضارة، وطاقاتهم الإنشائية والفنية **فكسب الاسلام هذه العواصم الزاهرة الزاخرة التى أعطته وأعطاها... وهى فى النهاية محسوبة له إذ بها يميل الميزان الحضارى إلى الرجحان حاملة اسمه آخذة مكانها فى التاريخ، فى مصاف الحضارات، حضارة إسلامية خالدة.**